

## المساحات والتدفقات

جانيس مونك

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

في بحثها عن استعارة جغرافية تُجسّد أربعة عقود من البحث والكتابة والانخراط المهني في الجغرافيا ، استقرت على "الجدول المضفرة" . يتميز هذا الشكل النهري بقنوات متباعدة ومتقاربة ، تحدث غالباً "حيث لا توجد تقريباً أي ضفاف جانبية فاصلة" (فيربريدج، ١٩٦٨ : ٩٠) . تُشكّل قناتان الجزء الأكبر من أعمالها - الدراسات النسوية والتعليم الجغرافي ، لا سيما من حيث ارتباطهما بالتعليم العالي ، على الرغم من تقاطعهما في كثير من الأحيان . لكن هناك قنوات أخرى واضحة تتداخل أيضاً مع هذه القنوات ، بما في ذلك الأبحاث المتعلقة بالأقليات العرقية / الإثنية في المجتمعات ذات الأغلبية البيضاء ، والتغيير في المجتمعات الريفية .

بتأملي للحركات واللقاءات التي مررت بها خلال مسيرتي المهنية ، حفزني الكتابة عن أستراليا ، ومنطقة البحر الكاريبي ، والاتحاد الأوروبي ، وجنوب غرب الولايات المتحدة ، ومنطقة الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك . نُشرت كتاباتي باللغة الإنجليزية في أستراليا ، وبريطانيا ، وكندا ، ومنطقة البحر الكاريبي ، ونيوزيلندا ، والولايات المتحدة ، كما نُشرت باللغات الكاتالونية ، والصينية ، والألمانية ، والإيطالية ، واليابانية ، والإسبانية . أجريت مسوحات وملاحظات ميدانية ، وبحوثاً أرشيفية ، وروايات شفوية ، وتفسيرات نصية . كما شكلت الالتزامات التحريرية جزءاً رئيسياً من عملي . وقد أدت علاقتي المهنية وصادقاتي إلى تعيينات قصيرة الأجل ، وفترات كباحث زائر أو مستشار في أستراليا ، وكندا ، والهند ، وإسرائيل ، وهولندا ، ونيوزيلندا ، وإسبانيا ، وسويسرا . كما شغلّت مناصب في أقسام الجغرافيا ، وفي معهد متعدد التخصصات في دراسات المرأة ، وكنت نشطاً جداً في المنظمات المهنية .

عبر هذه المجالات المختلفة من المساعي ، أرى نقاط تقارب واستمرارية في دوافعي ، بما في ذلك اهتمامي الدائم بالعدالة الاجتماعية ، والعمل والبحث ، والاستجابة للأشخاص والأماكن التي ارتبطت بها . يتجلى في ممارستي تجاوز الحدود التخصصية ، والعمل داخل المؤسسات ومن أجل تغييرها ، وتقدير الروابط الدولية . قد لا يرى الآخرون عملي كما أصوره هنا ، وأمل ألا تبدو تعليقاتي أنانية للغاية . هذا التقرير من منظور الإدراك المتأخر ، ومن منظور يعكس مثلاً عليّ ربما لم أكن قادراً على التعبير عنها وقت بدء العمل . إلى حد كبير ، كانت التوجيهات ناشئة ، بدلاً من أن تكون مُخطّطاً لها .

## الأماكن والأشخاص وطرق المعرفة

لطالما لجأت إلى تخصصات أخرى ، مع الحفاظ على التزام جغرافي راسخ بإدراك أهمية المكان وخصوصياته . وتُجسّد أطروحتي للدكتوراه حول الاختلافات بين مجتمعات السكان الأصليين في نيو ساوث ويلز هذا الموقف (مونك، 1974) . عندما تناولتُ هذا الموضوع في منتصف الستينيات ، كانت حدود الجغرافيا الأسترالية تستبعد السكان الأصليين إلى حد كبير . وتركز الاهتمام بشكل متزايد على اختبار النظريات المكانية التي طوّرت في أماكن أخرى . كما لم تكن هناك دراسات دولية تُذكر . اهتمامي بالجغرافيا في مجتمعات الأقليات أو مسائل "العرق" . نشأ اختياري من تجربتي الشخصية ، وليس من الأدبيات . بعد حصولي على درجة البكالوريوس بفترة وجيزة ، عملت كمتطوع في بناء منازل لعائلات السكان الأصليين في بلدة صغيرة في نيو ساوث ويلز . نظّمت مجموعة كنسية المشروع ، بمشاركة شباب وشابات بيض (معظمهم من الخريجين

الجدد والمهنيين) الذين وقروا العمالة ، بينما دفعت حكومة الولاية تكاليف المواد كجزء من سياستها الرامية إلى "استيعاب" السكان الأصليين بنقلهم إلى المدينة من المحميات الواقعة على أطراف المجتمعات البيضاء .

أثار المشروع العديد من الأسئلة لديّ ، أخلاقية وجغرافية . بعد ما يقرب من عقد من الزمان ، أثناء صياغتي لموضوع بحثي كطالب دراسات عليا في الولايات المتحدة خلال حقبة حركة الحقوق المدنية في الستينيات ، انتقلت إلى مسائل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين المجتمعات الأصلية والبيضاء في نيو ساوث ويلز. في بحثي عن رؤية جديدة ، نظرتُ إلى ما هو أبعد من الجغرافيا ، إلى الموقع البديهي للأنثروبولوجيا الأسترالية ، لكنها لم تُقدّم أعمالاً تُعبّر عن حساسيتي الجغرافية . واستناداً إلى تقاليد الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية ، قُدّمت دراسات قائمة على الملاحظة التشاركية لمجتمعات منفردة ، وفُسّرتها من حيث استمرارية الأساليب الثقافية "التقليدية" أو من حيث سيكولوجية كونها مجتمعات مؤسسية مغلقة .

ووجدتُ أن أفكار بعض علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع في الولايات المتحدة ، الذين أدخلوا منظورات بيئية ومادية في دراسة التغير الثقافي والعلاقات العرقية ، أكثر فائدة . أثناء تخطيطي لبحثي ، التقيتُ بتشارلز رولي ، وهو عالم سياسي يُدير مشروعاً واسع النطاق حول تاريخ وظروف السكان الأصليين الحالية لصالح مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية في أستراليا (رولي، 1970أ؛ 1970ب؛ 1970ج) ؛ وقد ارتبطت هذه الدراسات بتغييرات رئيسية لاحقة في السياسات الوطنية . كان متعاطفاً مع اهتماماتي بالعلاقات المادية ، وفي النهاية أدرج أعمالي في كتابه "المنبوذون في أستراليا البيضاء" .

تُوضح أطروحتي الحركة خارج القنوات التي كانت شائعة في الجغرافيا آنذاك ، بينما تُمثل حركة استمرت في عملي - بالاعتماد على تجربتي الشخصية لتحفيز دراسة الروابط بين السياسات العامة وتجارب الأفراد معها . ومن الأمثلة الأخرى دراستي للأنماط السكنية والشبكات الاجتماعية للمهاجرين الآسيويين المحترفين إلى سيدني في سبعينيات القرن الماضي (مونك، 1983) ، ومرة أخرى في وقت لم يكن فيه هذا التخصص يُعالج قضايا العرق والهجرة بشكل خاص . لا شك أن الاختيار عكس التقاء تجاربي في النشأة في مجتمع كانت سياسة "أستراليا البيضاء" ما تزال قيد المناقشة ، حيث بدأت الأغلبية السكانية الأنجلو-سلتية المتجانسة نسبياً في التغير مع التدفق الكبير للمهاجرين من أصول وطنية متنوعة ، ووضعِي الشخصي كطالب أجنبي وعضو هيئة تدريس مهاجر في مجتمع الولايات المتحدة متعدد الأعراق / الإثنيات .

بدأ عملي اللاحق في منطقة البحر الكاريبي عندما كُفِّتُ أنا وتشارلز ألكسندر بتدريس فصل دراسي ميداني صيفي في بورتوريكو لجامعة إلينوي . ما رأيانه في المشهد دفعنا إلى طرح أسئلة حول تأثير سياسات التنمية المتغيرة على المجتمعات الريفية . وبصفته جغرافياً طبيعياً ، درس سابقاً الجغرافيا التاريخية الثقافية في جزيرة مارغريتا ، فنزويلا ، كان منفتحاً على التعاون وعلى طرق متعددة للمعرفة . دمجتُ أساليب المقابلات الاستقصائية ، التي اكتسبْتُ منها خبرة ، وخبرته في إجراء الملاحظات الميدانية ، ولغته الإسبانية القديمة ولغتي الإسبانية المبتدئة (مونك وألكسندر، 1979؛ 1985) . كما أثمر بحثي في بورتوريكو عن أول كتاباتي النسوية ، مدفوعة بتعزيز الحركة النسائية في المجتمع في سبعينيات القرن الماضي وتأثيرها على العمل الأكاديمي في مختلف التخصصات . درسنا تقاطعات الجنس والطبقة والهجرة في بورتوريكو ، ثم في جزيرة مارغريتا (مونك، ١٩٨١؛ مونك وألكسندر، ١٩٨٦) .

في أواخر سبعينيات القرن الماضي ، وجهت مجموعة أخرى من اللقاءات عملي نحو قنوات جديدة ، لكنها قنوات تتوافق مع عملي السابق حول الأشخاص خارج مراكز السلطة . دفعت الحركة النسوية الباحثين إلى فهم أوضح لكيفية انعكاس البحث والتدريس على القيم الاجتماعية والثقافية والسياسية وعدم المساواة بين الجنسين . بالنسبة للنسويات في مجال الجغرافيا ، أدى ذلك إلى تنظيم جلسات بحثية ، وأنشطة تواصل ودعم

في المؤتمرات ، وتطوير دورات ومواد تعليمية جديدة ، وتوجيه أبحاث جديدة نحو قضايا المرأة والنوع الاجتماعي . تواصلت معي بوني لويد وأرلين رينجرت ، بعد أن اطلعتا على فرص التمويل بموجب قانون المساواة التعليمية للمرأة (WEEA) في الولايات المتحدة ، بشأن التعاون لكتابة مقترح لدعم تطوير واختبار وحدات دراسية تجريبية من شأنها إدخال محتوى نسوي في مقررات الجغرافيا البشرية التمهيدية . قدّمنا طلباً ناجحاً برعاية جمعية الجغرافيين الأمريكيين، مما منحنا بذلك اعترافاً مهنيّاً واعتراقاً بالاهتمامات النسوية . كانت النتيجة كتيّفاً لمواد الطلاب والمدرسين بعنوان "المرأة والتغير المكاني" (رينجرت ومونك، ١٩٨٢) . كما نسقت بوني وأرلين إصداراً خاصاً من مجلة الجغرافيا حول "المرأة في المناهج الجغرافية" ، والذي ساهمت فيه بتحليلٍ للتحيزات الجنسانية في اللغة والأدوار المُمثّلة في ألعاب المحاكاة المنشورة في هذا التخصص (مونك، ١٩٧٨) . كان الهدف من هذه المقالات نقد الممارسات القائمة والدعوة إلى جغرافيا بشرية أكثر شمولاً . وقد شكّلت هذه الأهداف نفسها دافعاً لكتابة ورقة بحثية بالاشتراك مع سوزان هانسون (مونك وهانسون، ١٩٨٢) تناولت التحيزات الجنسانية في النظريات والأساليب والأغراض السائدة في البحث الجغرافي . منذ ذلك الحين ، أصبحت الجهود الموجهة نحو تغيير المناهج الدراسية المستوحاة من النسوية تياراً سائداً في عملي ، متجاوزة التخصصات ، ومُراعيةً الاهتمام بالأقليات ووجهات النظر الثقافية المتقاطعة ، بالإضافة إلى التركيز على النوع الاجتماعي (على سبيل المثال: مونك، 1988؛ 2000؛ مونك وآخرون، 2000؛ لاي وآخرون، 2002).

### تغيير المؤسسات

من ناحيتين ، كان تغيير المؤسسات جزءاً أساسياً من عملي المهني . من ناحية ، كانت مشاركتي في المشاريع التعليمية تعني ربط البحث بالعمل لمحاولة الابتكار في التدريس في التعليم العالي . ومن ناحية أخرى ، كان لتغيير مكان عملي من قسم الجغرافيا إلى معهد ذي توجه إقليمي في دراسات المرأة تأثيراً ملحوظاً على فرصي والتزاماتي . بدأ العمل التعليمي بالصدفة تقريباً عندما تواصل باحثون في مكتب الموارد التعليمية (OIR) بجامعة إلينوي في أوربانا-شامبين مع قسم الجغرافيا باحثين عن شركاء لمشروع بحثي تطبيقي يُجري تجارب على مناهج بديلة لتحسين تقييم تعلم الطلاب . كنت على وشك إنهاء أطروحتي، وطلب مني القسم أن أتولى منصباً في هيئة التدريس بتمويل منحة ، لتدريس فصل دراسي متميز في الجغرافيا الطبيعية ، والتعاون في البحث .

بعد ذلك ، سعى مكتب الموارد التعليمية إلى مزيد من التعاون في جهود تقييم المقررات الدراسية والتدريس ؛ وقد وسّع هذا العمل نطاق ارتباطي . تطلبت كلتا المهمتين تعلم أدبيات جديدة ، وابتكار مناهج جديدة في الفصل الدراسي ، والإشراف على مساعدي التدريس في الدراسات العليا ، والمشاركة في تأليف منشورات (مثل: مونك، 1971؛ مونك وستالينجز، 1975؛ مونك وألكسندر، 1973؛ 1975) . كما أنها تعني التفاعل مع تصاميم البحث التجريبي ، والأساليب الكمية والنوعية ، وتوضيح نقاط قوتها ، وحدودها ، وتكاملها . وقد عززت هذه التجربة إدراكي لقيمة قبول طرق متعددة للمعرفة.

في ذلك الوقت تقريباً ، كانت جمعية الجغرافيين الأمريكيين (AAG)، التي كانت تشارك في مجموعة من المشاريع لتحسين حصّل ، بعد أن درست الجغرافيا الجامعية ، على تمويل من المؤسسة الوطنية للعلوم لمعالجة إعداد طلاب الدكتوراه لأدوارهم التدريسية . وبفضل خبرتي المكتسبة حديثاً واهتمام قسّمي بالمشاركة في مشروع وطني ، توليت منصب المدير المحلي للمشروع في هذا البرنامج متعدد الجامعات (مونك، 1978ب) . وقد غدّى ذلك اهتمامي والتزامي بتغيير الممارسات في التعليم العالي من خلال تطوير أعضاء هيئة التدريس والمناهج الدراسية ، وربطني بشبكة وطنية (ولاحقاً دولية) ، وحفّزني على المشاركة في

مشاريع واسعة النطاق متعددة الأشخاص والمؤسسات . وقد ساعدتني تجاربي المتنوعة في هذه المرحلة المبكرة من مسيرتي المهنية والتزاماتي النسوية عندما اضطررت للبحث عن وظيفة جديدة في وقت كان فيه سوق العمل الأكاديمي في الجغرافيا ضعيفاً .

انتقلت إلى جامعة أريزونا لأصبح المديرة المشاركة (المديرة التنفيذية لاحقاً) لمعهد الجنوب الغربي لأبحاث المرأة (SIROW). تُجري منظمة SIROW برامج بحثية وتعليمية وتوعية مشتركة بين المؤسسات والتخصصات ، تُركز على التنوع الإقليمي للنساء أو ما يهم الباحثين في المنطقة التي تخدمها . لقد مهدت لي توجهاتي كجغرافية ، وخبراتي في مشاريع متعددة الأشخاص ومتعددة التمويل تتجاوز حدود التخصصات ، وانخراطي في العمل البحثي النسوي ، الطريق نحو العمل الجديد . لكن هذه الخطوة حالت دون استمراري في البحث الشخصي الميداني من النوع الذي أجريته في أستراليا ومنطقة البحر الكاريبي . استبدلت مشاريع أكثر نصوصاً ، ومقالات مراجعة ، وجهوداً تحريرية.

على مدى عقدين من العمل في SIROW ، انخرطت مع زملاء ومنظمات مجتمعية تُعنى بصحة المرأة ، ووضعها الاقتصادي ، وتعليمها (خاصةً في العلوم والرياضيات والهندسة) ، وأشكال التعبير الثقافي . في بعض المشاريع ، كان دوري الرئيسي هو المشاركة في تأليف مقترحات المنح ، وإدارة العمل ، والتأكد من نشره . وفي مشاريع أخرى ، كنتُ قائدة . كان الجهد الأكثر استدامة هو الذي جمع اهتماماتي الجغرافية بمعنى المكان مع التزاماتي النسوية ، مما أدى إلى كتاب "الصحراء ليست سيدة : المظاهر الطبيعية الجنوبية الغربية في الكتابة والفن النسائي" (نوروود ومونك، ١٩٩٧) وفيلم مستوحى من الكتاب.

شكّلتُ أنا وفيرا نوروود ، الباحثة في الدراسات الأمريكية بجامعة نيو مكسيكو ، فريقاً من الباحثين في الأدب والأنثروبولوجيا وتاريخ الفن لاستكشاف كيف ربطت النساء الأمريكيات المكسيكيات ، والهنود الأمريكيات ، والأنجلو أمريكيات على مدى قرن من الزمان بين مشاعرهن بالهوية والمكان ، وعبرن عنها في أعمالهن الإبداعية . **تناقضت تفسيراتنا مع دراسات كتابات الرجال البيض التي هيمنت على الدراسات الأكاديمية حول الجنوب الغربي . وتم تحديدها من خلال تصوير الأرض كعذراء يجب غزوها ، كأم حاضنة ، كمكان للتنمية أو على العكس من ذلك ، برية يجب حمايتها .** لقد رأينا أن عمل النساء يركز على استخلاص الطاقة من الأرض والاحتفاء ببراريها وجاذبيتها . استكشفنا كيف تأثرت تمثيلات النساء بالسياقات التاريخية ، والاختلافات العرقية والثقافية ، والمناطق الجغرافية المحددة .

أخذني هذا المشروع إلى آفاق منهجية جديدة ، وحفزني على المزيد من الكتابة المتعلقة بالجنس والمظاهر الطبيعية (مثل مونك، 1992؛ نوروود ومونك، 1997) ، بالإضافة إلى التعاون في صناعة الأفلام مع زملاء بريطانيين (ويليامز، 1995) . على الرغم من أن التزاماتي في هذا المسعى كانت في معظمها لجمع التبرعات والاستشارات ، إلا أن المشروع سلط الضوء على مدى إمكانية التلاعب بالتمثيلات من خلال العمليات التحريرية ، وزاد من وعيي بالجوانب المتعددة لأصوات من تُمثل في البحث.

## تقدير التوجه الدولي

يتعلق التوجه الأخير الذي أود مناقشته بتقارب القنوات المختلفة . ابتداءً من ثمانينيات القرن الماضي ، بدأتُ البحث عن طرق لربط ما قد نسميه الآن "المحلي" و"العالمي" ، مع الجمع بين النسوية والجهود التعليمية والشبكات المهنية . أطلقْتُ سلسلة من برامج التطوير المهني وأعضاء هيئة التدريس في SIROW لإدخال العمل النسوي في المقررات الدراسية ذات التوجه الدولي في مختلف التخصصات والمنظورات الدولية في دراسات المرأة . أسفرت هذه البرامج عن عدد من الاستشارات والتحرير المشترك لمجموعات لنشر

مناهج ربط التدريس في دراسات المرأة بالدراسات الدولية (مونك وآخرون، 1991؛ لاي وآخرون، 2002) . منذ منتصف التسعينيات ، شمل هذا التوجه التعاون مع زملاء مكسيكيين في تعزيز البحث ، وتطوير أعضاء هيئة التدريس ، والتواصل المجتمعي حول موضوع النوع الاجتماعي والصحة على الحدود بين المكسيك والولايات المتحدة . على الرغم من أن العمل التعاوني كان جزءاً لا يتجزأ من حياتي المهنية لفترة طويلة ، إلا أن هذا المشروع العابر للحدود قد استلهم بشكل خاص من الفكر النسوي الذي تناول أسئلة مثل من يضع أجندة البحث ومن يستفيد منه ، وما هي الطرق التي يمكن من خلالها ربط البحث والعمل بشكل كامل. لقد طورنا مناهج لتقاسم صنع القرار والموارد بشكل منصف ، وتأملنا في العلاقات بين الباحثين والعاملين في وكالات المجتمع (مونك وآخرون، 2002).

في مجال الجغرافيا ، عملت منذ ثمانينيات القرن الماضي مع زملاء ذوي تفكير مماثل لتعزيز البحث العلمي في مجال النوع الاجتماعي داخل الاتحاد الجغرافي الدولي والجغرافيا النسوية بشكل عام . ولم يكن أحد الدوافع المهمة هو تعزيز حضور البحث العلمي النسوي في الجغرافيا فحسب ، بل أيضاً محاولة تعزيز وجهات نظر تُقدّر الرؤى والأصوات خارج نطاق السيطرة الأمريكية والبريطانية . قادني ذلك إلى المشاركة في تحرير سلسلة كتب "الدراسات الدولية للمرأة" و"المكان" مع جانيت مومسن ، والمشاركة في تحرير كتابين يضمّان مساهمات من دول متعددة (كاتز ومونك، 1993؛ غارسيا رامون ومونك، 1996)، والكتابة عن وجهات النظر المقارنة في الجغرافيا النسوية (مونك، 1994)، والزيارة والتشاور في جامعات في عدة دول، والمشاركة بنشاط في لجنة الاتحاد الجغرافي الدولي المعنية بالجندر والجغرافيا ، وتحرير نشرتها الإخبارية منذ عام 1988.

كلما أمكنني ، أشتهد بأعمال باحثين من خارج المناطق المهيمنة ، وألفت الانتباه إلى القضايا المتعلقة بالعمل عبر الحدود الوطنية في مجال التعليم الجغرافي (مونك، 1997؛ شيبيرد وآخرون، 2000؛ غارسيا رامون ومونك، 1997) ، وتعزيز التدريس الذي يُعنى بالتنوع البشري في الولايات المتحدة وخارجها (مونك، 2000؛ مونك وآخرون، 2000) . وقد أثرت هذه المنظورات أيضاً على التوجيهات التي اتخذتها عندما حظيت بشرف رئاسة الجمعية الجغرافية الأمريكية (AAG) في عامي 2001 و2002، ودعوت رئيسات أربع جمعيات جغرافية (الأسترالية ، والكالفورنية ، والكندية ، والكاتالونية) للتحدث في الجلسة العامة الرئاسية في الاجتماع السنوي حول موضوع "وجهات نظر ، مواقع للعمل" ، كما نظمت حفل استقبال للترحيب بالعديد من الجغرافيين من خارج الولايات المتحدة الذين يحضرون اجتماعات الجمعية الجغرافية الأمريكية .

بالنظر إلى الماضي ، أرى أن التزاماتي تعكس ، إلى حد ما ، كوني كنتُ على الهامش جغرافياً ومهنيًا ، كناشطة نسوية أسترالية مغتربة ، امرأة نشأت في خمسينيات القرن الماضي عندما لم تكن النساء يتوقعن السعي وراء مسارات أكاديمية ، ولكن أيضاً كمهاجرة تعيش الآن منذ ما يقرب من 20 عاماً بالقرب من حدود الولايات المتحدة والمكسيك ، وتعمل في معهد نسوي متعدد التخصصات . ساهمت هذه الظروف في تحديد موقع عملي . مع أن التيارات المتشابكة تتدفق بحرية نسبية من خلال "الضفاف الجانبية" ، إلا أنها حافظت على التزامي بالحياة في الجغرافيا ورغبتي في تحقيق قيمي في مسارها الصحيح.